الطبونيميا العربية الأندلسية:

الخصائص والأصول والأصناف

تقديم

إن اهتمام الطبونيميا[1] بدراسة أسماء الأماكن بتحديد أصنافها ومعانيها وتواريخ اتخاذها وتطورها يجعلها تتحول إلى مختبر وسجل حقيقي للحياة وتطورها في بقعة جغرافية ما، وهي في أحيان كثيرة تمنح معطيات دقيقة تعجز الوثائق المكتوبة عن تقديمها والاحتفاظ بها، لكن أمرها لا يستقيم؛ في غالب الأحيان، إلا بوجود المكتوب كسند ضروري. وتساعد على تتبع بعض تطورات التعمير والحضارة بكلمات قليلة تغني عن ركام هائل من الملفات مما يخلف دهشة كبيرة عند الباحث ويقدم له معطيات تتجاوز كل انتظاراته شرط أن يتوفر على المنهج المناسب والذهن المتوقد. وتنطبق هذه الصورة على أسماء الأماكن الأندلسية أو الإسبانية حيث توفر معلومات عن كل الشعوب التي عمرت أو مرت من هذه البلاد من سلت وفاسك وإغريق وفنيقيين وقرطاجيين ولاتين وقوط وقشتاليين وعرب وبربر/أمازيغ وصقالبة... ويهمنا في هذا المقام أن نتوقف عند الصنف الذي يهم العرب أو المسلمين بصفة عامة، وهو ينتشر في كل شبه الجزيرة الإيبيرية مع هيمنة كبيرة في النصف الجنوبي الذي مازال يحتفظ بالكثير من الأسماء العربية حتى اليوم بالرغم مما اعتراها من تحريف لتكييفها مع اللغة الإسبانية. وسنعمل على دراستها من خلال نقطتين رئيسيتين:

- الخصائص العامة للطبونيميا العربية في الأندلس.
- تحديد أصناف وأصول هذه الأسماء

---

[1]- MULON Marianne, Toponymie, Encyclopédie universelle ,Paris, 1990, t.22, pp.(758-759).
Toponymy, WIKIPEDIA the free encyclopedia.

1- خصائص الطبونيميا العربية في الأندلس:

نتطلع من خلال هذه النقطة إلى إبراز مجموعة من المميزات التي تخص أسماء الأماكن العربية في الأندلس والتي تفسر كثيرا مما سيرد في الجزء الأخير، كما أنها ستجنب القارئ والمهتم الوقوع في بعض الأخطاء أو الانحرافات خاصة في ميدان التأويل والتفسير للأسماء.

نبدأ هذه الخصائص من المصادر ذلك أن الباحث والمطلع على التاريخ الأندلسي يلاحظ بسهولة الاهتمام الكبير بالمكان من قبل علماء وكتاب هذه البلاد؛ وربما كان للصراع مع المسيحيين الأثر الكبير في هذا الحضور القوي للبعد المكاني في ذهن وعقل ولا وعي الأندلسي. وهكذا نجد أن أولى المؤلفات المخصصة للتعريف بأسماء الأماكن في العالم العربي الإسلامي ظهرت في الأندلس، حيث ألف أبو عبيد البكري (487هـ/1194م) أول المعاجم الجغرافية وسماه "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" وخصصه لذكر "جملة ما ورد في الحديث والأخبار، والتواريخ والأشعار، من المنازل والديار، والقرى والأمصار، والجبال والآثار، والمياه والآبار، والدارات والحرار، منسوبة محددة"[2] بشبه الجزيرة العربية، كما أن كتاب التراجم والتواريخ العامة يتوقفون بين الفينة والأخرى للتعريف بالأعلام الجغرافية التي يرد ذكرها عند الحديث عن مترجميهم أو أحداثهم التاريخية. ويوفر هذا الاهتمام للباحث في موضوع الطبونيميا مادة وافرة تتوزعها مصادر كثيرة تأتي على رأسها كتب الجغرافية مثل: صورة الأرض لابن حوقل وجغرافية الأندلس وأوربا للبكري (من كتاب المسالك والممالك) وترصيع الأخبار للعذري الدلائي ونزهة المشتاق للإدريسي والجعرافيا للزهري ومعجم البلدان لياقوت الحموي والجغرافيا لابن سعيد والروض المعطار للحميري وغيرها، وكتب التاريخ العام مثل فتوح المغرب والأندلس لابن عبد الحكم وأخبار مجموعة وتاريخ افتتاح الأندلس والمقتبس والمن بالإمامة ونظم الجمان والبيان المغرب...، وكتب التراجم والسير مثل تاريخ علماء الأندلس والصلة والتكملة والحلة السيراء وجذوة المقتبس وبغية الملتمس

---

[2]- البكري أبو عبيد، معجم ماستعجم ، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، 1983، ج1، ص.1.

وصلة الصلة والذيل والتكملة...، وكتب الأدب مثل الذخيرة السنية والمغرب في حلى المغرب...، ومؤلفات أخرى في الرحلة والفقه والنوازل والحسبة والفلاحة والفلك ...، ففي كل واحد منها يجد الباحث اسما أو تعريفا به أو تحديدا لسبب تسميته. وخارج الكتب والأوراق يوفر الميدا ن؛ وحتى اللحظة، عددا ضخما من الأسماء التي ما يزال الإسبان يستخدمونها في حياتهم اليومية مع بعض التحريف. ويخصص لها الباحثون الإسبان جهودا كبيرة لجمعها وضبط أصلها العربي باعتماد قواعد وضوابط لسانية ما فتئت تتطور منذ القرن 19م، ومن أفضل ما أنجز في هذا المجال كتاب "مساهمة في الطبونيميا العربية لإسبانيا" لآسين بلاسيوس منذ النصف الأول من القرن 20م، وقد جمع بين المصدر المكتوب العربي واللاتيني والإسباني والبحث الميداني لتحديد قائمة مهمة من الأسماء، ولكن باحثين آخرين يعملون بشكل دؤوب لإغناء جهود الرواد.

إن تحديد سبب التسمية مسالة وقفية لا تقوم معرفتها على الاجتهاد والتأويل لأن "صحة هذا لا تدرك بالفطنة والذكاء، كما يلحق المشتق من سائر الأسماء"[3] كما يقول البكري، بل تتطلب حضور نص موثق، ذلك أننا في كثير من الأحيان نعتقد أن سبب التسمية سهل وقريب من أفهامنا لكن حضور نص يقلب كل التصورات، ويمكن أن أعطي بعض النماذج لتوضيح ذلك منها:

- في قرطبة يوجد مكان يسمى فحص مطرف وقد نظن لأول وهلة أن هذا الفحص في ملك شخص يسمى مطرف، لكن المصادر التاريخية تحل الإشكال عندما تخبرنا أن السبب في التسمية هو صلب مطرف بن موسى بن قسي أحد الثوار على الأمير محمد عام 259هـ/873م بهذا المكان[4].

---

[3]- نفسه.

[4]- محمد حقي، البربر في الأندلس، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2001، ص.59.

- في بقيرة قرب طليطلة مكان يسمى مرج العرب، وقد نظن أنه معمر بهم أو في ملكهم، لكن الرواية التاريخية تؤكد أنه فقط شهد قتل جمع من العرب على يد لب بن موسى بن موسى بن قسي عام 260هـ[5].

لذلك فقبل تحديد أصل اسم ما يجب التأكد من الحدث المرافق أو الاكتفاء بإيراد أكبر عدد من الاحتمالات. وفي هذا الصدد يجب الحذر من التفسيرات الشعبية التي تكون أكثر جاذبية للسياح وغرابة وإثارة للمشاعر والتي تنافس التفسيرات العلمية بقوة[6] حتى إننا نجد دائما تفسيرا شعبيا موازيا للتفسير العلمي.

إن دراسة أسماء الأماكن في الأندلس تظهر أن معظم فروعها حاضرة مثل الأودونيميا (Odonymie) التي تدرس أسماء الشوارع والطرق، والإدرونيميا (Hydronymie) التي تتخصص في أسماء مجاري المياه (واد-غدير) والأورونيميا (Oronymie) التي تهتم بأسماء الجبال. وتتضمن أسماء الأماكن الأندلسية كثيرا من أسماء الدروب والأزقة والشوارع والأبواب والمجاري المائية والجبال.

يكشف تصنيف أسماء الأماكن الأندلسية حقيقة مهمة وهي هيمنة أسماء الأماكن الثانوية والقروية أو الحصون والقلاع أو بعض الأحياء والدروب والأزقة والأبواب، أو ما يمكن أن نسميه أسماء أماكن صغيرة، بينما تنعدم أسماء المعالم الكبرى مثل المدن الكبيرة والكور والجهات التي احتفظت بأسمائها القديمة. فلماذا هذا التوجه؟

يرى دوزي أن سبب ذلك يعود إلى كون العرب حتى عصر الخلافة لم يستقروا في المدن واكتفوا بالسكنى في البوادي، لذلك كان تأثيرهم قويا فيها بينما كان شبه غائب في المدن[7]، بينما حاول أحد الباحثين الإسبان تفسير ظاهرة تغير أسماء الأماكن بطابعها الوظيفي ذلك أنه كلما تم إهمال مكان وهجره أهله تعرض اسمه للنسيان وعوض عند إعادة تعميره بآخر، كما أكد أن أسماء الأماكن الصغيرة معرضة أكثر للنسيان عكس

---

[5] - نفسه.

[6] - Toponimia, Enciclopedia libre Wikipedia.

[7] - ASIN Palacios Miguel,Contribucion a la toponimia arabe de España, Madrid, 1944, p ,10.

الكبيرة التي يسهل اسمرارها وتقاوم التغيير والإهمال[8]. لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو هل كان للعرب اهتمام بتسمية الأماكن بأسماء عربية؟

أولا، فالمسألة ليست عامة إذ نجد بعض الأعلام الكبيرة؛ ولو أنها قليلة، فرضت نفسها حتى اليوم مثل: الوادي الكبير والغرب ومدينة سالم ووادي الحجارة، وثانيا، إن خبرتنا في هذا الباب تثبت أن الفاتحين والمعمرين المسلمين للأرض لم يكن لهم هذا الهاجس حتى إنهم عندما أسسوا مدنا جديدة كانوا يبحثون عن أسماء محلية قديمة (بغداد – سجلماسة)، كما كانوا يكتفون بالنسبة للأسماء القائمة بتكييفها مع النطق العربي والكتابة العربية. وهذا ينطبق على الأندلس تماما بحيث لم يغير العرب الأسماء القديمة إلا نادرا. وحسب معرفتنا فقد حصلت واحدة سنة 125هـ/ 745م عندما قام أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والي الأندلس بتوزيع جند بلج بن بشر الشامي على الكور وأطلقوا عليها أسماء بلدان الفرق الأصلية وكانت على الشكل التالي: إلبيرة= دمشق / رية= الأردن / شذونة= فلسطين / إشبيلية= حمص / قنسرين= جيان / تدمير= مصر[9]، وحتى هذا التدخل ظل اختياريا ولم يفرض أو تم التشدد في استعماله فظلت الأسماء القديمة مهيمنة ولا تستعمل الجديدة إلا نادرا أو مرادفة للأخرى. وهذا عكس الإسبان حيث وجدنا أن ألفونسو العاشر أو الحكيم (1252-1284م)؛ لما اشتدت حركة الاسترداد، يغير الأسماء العربية إلى اللاتينية دعما للحركة[10]. ومن هذا المنطلق نقول إن أسماء الأماكن العربية في الأندلس ليست نتيجة سياسة واعية ومنظمة، بل هي اختراع شعبي خضع لعفوية الحياة اليومية حيث كان الناس يستغلون أي حدث عابر أو ميزة طبيعية أو ساكنة معمرة أو قائد متنفذ أو منتوج مميز لإطلاق الأسماء الجديدة، أما إن وجدوا اسما قديما فيكتفون بتكييفه مع نطقهم العربي، فكانت نتيجة ذلك بقاء الأسماء القديمة مهيمنة ولم تعط أسماء جديدة إلا لما ليس له اسم.

---

[8]- Francisco Morio Fernandez, Toponimia de la mancha: caracterizacion general, actas del 2 congreso international de Historia de lengua espanola, t. 2, Pabelon de espana, Madrid, 1992, (pp.1021-1028), p.1025.

[9]- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص.33.

[10] - Gabriel Garcia Guardia Catedratica, los nombres botanicos y la toponimia en la provencia de JAEN, R. Boletin del instituto de estudios ginnenses, P.34.

أكيد أن الخصائص التي عرضنا لها ستساعد على فهم كثير من الأمور التي تتعلق بتصنيف الأسماء في القسم الثاني من الدراسة.

2- أصناف الأسماء الأماكن العربية الأندلسية وأصولها

ينصب الاهتمام في هذا الجزء على إيراد أسماء الأماكن العربية وتصنيفها وفقا لأصولها، وسنعتمد في الاستشهادات على الأسماء التي وردت عند أسين بلاسيوس في كتابه السالف الذكر[11]. وبناء على دراسة الأسماء تم تقسيمها إلى ستة أصناف.

2-1- الأعلام ذات الأصل البشري:

تهيمن بشكل كبير جدا، إذ لا تكاد تخلو أي منطقة منها، ويفسر أسين بلاسيوس ذلك بهيمنة النظام القبلي والإقطاعي واستمرار التوارث بين الأجيال[12]. ونظرا لهيمنة القبائل أو الزعماء الاقطاعيين فلم يجد الناس معلما أقوى منه لنعت أو تسمية مناطقهم. وتجد هذه الأعلام أصلها إما في أسماء قبائل وعشائر وأسر أو أسماء أشخاص عربية أو بربرية/أمازيغية أو من المولدين والمستعربين. ويمكن أن نورد بعض النماذج على سبيل التمثيل.

الاسم	مكان وجوده	الصفحة	الاسم	مكان وجوده	الصفحة
زناتة	القنت وبلنسية	43	ابن جبير	البسيط	41
الجعفريين	طليطلة	44	ابن رمان	بلنسية	41
القيسية	بلنسية	53	أبو الحجاج	المرية	41
واد العرب	مرسية	45	حجاج	برغوس	43
قرية همدان	غرناطة	64	وادي عبد العزيز	مالقة	41
الزواغة	بطليوس	80	ابن سويد	المرية	41
منزل هوازن	غرناطة	118			

[11] -نجدها في الجزء الثاني منه ويبدأ في الصفحة 41، وهي مرتبة وفق الأبجدية اللاتينية لذلك يسهل إيجاد الاسم.

[12] - Asin, Op.cit, p.33.

2-2- الأعلام ذات الأصول الطبيعية:

وتتضمن هذه الأصول **الأشكال التضاريسية** التي تطلق أسماؤها على المواضع التي توجد بها مثل: القور (هضاب) (ص.54) والفيض (ص.58) ببلنسية والفحص بالقنت (ص.60) والسند (حافة) بمالقة (ص.102) والنقرة (حفرة عميقة) بغرناطة (ص.121) وصحراء بسمورة (ص.143)، و**مصادر المياه** التي تحمل؛ في بعض الأحيان، دلالات قوية مثل: البركة بالقنت ومرسية (ص.46) والبحيرة بالمرية (ص.48) والبضيض (الماء القليل) بمرسية (ص.49) والشط بمدريد (ص.62) والحمة بالمرية ومرسية وغرناطة وسرقسطة (ص.63) والماء بالبسيط (ص.65) والعيون بطليطلة (ص.72) وغدر بتروال (ص.112)، و**الغطاء النباتي** مثل: الغابة بإشبيلية (ص.60) والغيضة بقادس (ص.61) والمروج بطليطلة (ص.71) والشعراء بقرطبة وطليطلة والمرية (ص.114) وتتخذ أحيانا أسماء أصناف محددة من **الأشجار** مثل: البلوط بفحص البلوط (ص.48) والخروب بمالقة (ص.61) والصبارة بالقنت (ص.74) والطرفاء بطليطلة (ص.77) ودفلى في منورقة (ص.105) ، وقد استغل باحثون إسبان هذه الأسماء لدراسة الغطاء النباتي في بعض مناطق بلادهم[13]، و**الوحيش** مثل: الحنش ببطليوس (ص.45) والعقاب ببلنسية (ص.126) وسرطان ببلد الوليد (ص.144)، و**الثروة المعدنية** مثل: كبريت ببسطة (ص.55) والمعدن بالمدينة الملكية (ص.65) والملاحة بغرناطة (ص.118)، وأخيرا يمكن أن نضيف **اللون** مثل: البيضاء بإشبيلة وبلنسية (ص.46). وكما يلاحظ فإن العنصر الطبيعي فرض نفسه بقوة على عقل الأندلسي فاتخذه مرشدا لتحديد المواقع، وهذا يؤكد عفوية التسميات التي سبقت الإشارة إليها أعلاه.

2-3- أسماء تتخذ أصولها من الجهات:

تأخذ بعض الأماكن أسماءها من الجهة التي تقع بها بالنسبة للمعنيين بالأمر، وهكذا نجد الأيسر بطرقونة (ص.57) والأيمن بطليطلة (ص.64) والغرب بإشبيلية (ص.61) وكذلك كل الأراضي الواقعة غربها وهو إقليم شاسع، والقبلة بمرسية (ص.63) وجوفي

[13]- Gabriel Garcia Guardia Catedratica, op. cit.

بالمرية (ص.103) وعالية بكاسيريس (ص.64) وسفلي بالمرية (ص.135) والزاوية بالقنت (ص.43).

2-4- أسماء من منشآت بشرية:

استخدمت كل أصناف المنشآت البشرية لتسمية ونعت الأماكن في الأندلس، بداية **بالبنايات المدنية** مثل: البنيان بغرناطة(ص.49) والقصر ببلنسية (ص.51) والغرفة بالقنت (ص.62) وغرف بغرناطة (ص.108) والنوايل بطليطلة والربض بأوبيدو (ص.76)، ومرورا **بالمنشآت المائية** التي تستعمل بكثرة مثل: السانية بكاسيريس والساقية بغرناطة (ص.42) والأقواس ببلنسية (ص.44) والداموس (صهريج) بقرطبة وبلنسية والصهريج ببلنسية (ص.43) والبئر بليون (ص.48) والقادوس بالبسيط وقونقة (ص.43) والقناة بميورقة (ص.52) والسد بطرقونة (ص.81)، ووصولا إلى **الطرق والممرات** مثل: السكة بطليطلة (ص.41) والسراط ببلنسية وسرقسطة (ص.42) والزقاق بإشبيلية (ص.79) والرصيف بالكناري (ص.77) والقناطر بلوكرونيس (ص.58)، وانتهاء ببعض **البنايات الوظيفية** مثل: الحمام بسرقسطة (ص.58) ومطمورة بقونقة (ص.120) والمخزن (ص.65).

2-5-أصل من منشآت عسكرية:

تعج الأندلس بحكم وضعها كثغر بأسماء أماكن ذات الأصل العسكري ومنها: البرانة (صومعة خارجية) بكاسيريس (ص.46) والبريج ببلنسية (ص.49) والقصبة بالمرية وبطليوس (ص.53) والعسكر ببلنسية (ص.45) والخندقة (ص.59) والحصن بقرطبة (ص.64) والمنار بلاردة (ص.67) والمحلة بأبيلا (ص.69) ومحلة بالمرية (ص.120) وحصن التين بجيان (ص.80) وحصن الفرج بإشبيلية وحصن نادر بقادس (ص.80)، ويمكن أن نضيف إليها اسم فارس بفريش والبسيط (ص.106).

2-6- أصل من أنشطة بشرية

وتهم كل الأسماء التي تنطلق من تدخل الإنسان في الأرض وطرق استغلالها ونوعية المنتجات ثم الخدمات المتوفرة في البلاد. وهكذا نجد الإحالة على تنظيم الأرض

واستغلالها من خلال أسماء الضيعة بمنورقة والضويعة بطليطلة (ص.43) والسخرة بلوكرونيس (ص.80) والحرث بسلمنقة (ص.45) والفيض والبعل والجنات ببلنسية (ص.46 و58 و62) وكوثر بمالقة (ص.104) والرياض بغرناطة (ص.77) وغنم بسمورة (ص.105) والمروج بطليطلة (ص.71)، وتفرض المنتجات الفلاحية نفسها كمراجع لأسماء مثل: الزيتون بطليطلة والدالية ببلد الوليد وبلنسية (ص.42) والكرز بالبسيط (ص.52) واللوزة بتروال (ص.74) والبرقوق بالمرية (ص.75) وباكور بغرناطة (ص.82).

ونالت المنتجات والمنشآت الصناعية نصيبها من الاهتمام حيث نلتقي بأسماء الفخار والبيازين بغرناطة (ص.57 و46) والزيت (ص.42) والطوب بتروال (ص.43) والحجر بولبة (ص.44) والمعصرة ببلنسية (ص.67).

وحضرت التجارة بدورها حيث وجدنا أماكن بأسماء بقال بمالقة (ص.82) وسويقة ببلنسية (ص.135) وأسواق (ص.141) وسقاطين والبيازين بغرناطة (ص.46 و143) وسوق الدواب بطليطلة (ص.144).

وتعطي بعض الخدمات أسماءها لأماكن مثل: القاضي بطليطلة والقائد بمالقة (ص.51) والخراصين ببلنسية (ص.60) والمؤذن بإشبيلية (ص.71) والبريد ببلنسية (ص.48) والمضربة بالمرية والقنت وميورقة (ص.66) والمدرس بطليطلة (ص.66).

أكيد اتضح أن المنشآت البشرية تعتبر مرجعا مهما لتسمية الأماكن في الأندلس.

2-7- أصول دينية:

صادفنا أيضا حضورا للأسماء ذات الأصول الدينية ولو أنه يبقى محتشما وضعيفا؛ وربما، كان لحركة الاسترداد دور في اختفاء كثير من الأسماء ذات الأصول الدينية خاصة وأن الملوك الكاثوليك وعلى رأسهم ألفونسو العاشر قد قادوا حملة لإزالة الأسماء العربية كما تمت الإشارة إلى ذلك أعلاه، ودون شك فالأسماء الدينية ستكون أكثر إثارة لغضبهم. ومن الأسماء التي وجدناها الكنيسة بقادس وبلنسية (ص.52) والجامع ببلنسية (ص.62) وحي الشريعة بالمرية ومصلى (ص.114) ورابطة بلاردة وطرقونة

(ص.130) والمؤذن بإشبيلية، ورغم قلتها فهي تكاد تغطي كل أصناف المؤسسات الدينية بالأندلس.

خاتمة

كما يلاحظ فأسماء الأماكن لم تترك شيئا له أهمية في الحياة اليومية دون أن تتخذ منه أصلا لها، وهذا يؤكد عفوية التسميات في هذه البلاد وطابعها الشعبي. وقد نجحت الطبونيميا بهذا الاختيار في الاحتفاظ بكثير من مظاهر الحياة الطبيعية والعمرانية والثقافية والاقتصادية مما يجعلها خزانا لا ينضب للمعلومات يستفيد منه متخصصون في الديمغرافيا والجيومورفلوجيا وعلم النبات والعمارة والاقتصاد والحضارة والتاريخ.